

## الفصل الرابع عشر فتح الشام

أقام خالد بن سعيد بتيماء في جيشه وفيمن نفر معه من قبائل البادية على تخوم الشام . وأقام جيش الروم مضاعف العدد بمن انضم إليه من القبائل على الناحية الأخرى من هذه التخوم . ولقد أثار تقابل الجيشين على هذا النحو حمية المسلمين وحركهم لقتال خصومهم . فلما قرأ خالد في كتاب أبي بكر : « أقدم ولا تحجم واستنصر الله » . أسرع بكل قواته فتحطى الحدود لمنازلة القوم . ولم يلبث الروم وأنصارهم حين رأوه دنا منهم أن تفرقوا وتركوا منازلهم ، فدخل معسكرهم وغنم ما فيه ، وكتب إلى أبي بكر بالنبأ ، فأجابته : « تقدم ولا تقتحم حتى لا تُؤثني من خلفك » . وتقدم خالد حتى بلغ القسطنطين في طريق البحر الميت ، فهزم جيشاً من الروم على الشاطئ الشرقي لذلك البحر ، ثم تابع مسيرته . هنالك ثارت حمية الروم وثارت حمية أهل الشام معهم ، فجمعوا في قوات تزيد على ما اجتمع قبالة تيماء أضعافاً مضاعفة .

خالد بن سعيد  
يفلب الروم  
ويدخل معسكرهم

ورأى خالد بن سعيد تجمعهم ، فكتب إلى أبي بكر يستمده ليتابع مسيرته المظفرة . وكانت جيوش المسلمين قد بدأت السير من المدينة إلى الشام لغزو الروم . وأبو بكر متفائل بمسيرتها ، مملوء أملاً بنصر الله إياها . فالروم ليسوا خيراً من الفرس حالا . وهم مذ غلبوا الفرس قد استغرقوا في سبوتهم . وجعلوا كل اعتمادهم في حماية تخومهم على أبناء البادية . ولأبناء البادية في مواقف كثيرة آيات بأس وشجاعة ميزتهم . لكن روابط الجنس واللغة لم تكن قائمة بينهم وبين الروم كقيامها بينهم وبين بني عمومتهم العرب المسلمين . ولم تكن نصرانية عرب الشام كنصرانية هرقل ، إذ كانوا من الأرثوذكس ، وكان قيصر من الكاثوليك . ولعلمهم رأوا في ضمن هرقل بالروم على القتال دليلاً على خوفه أن يهزم أبناء وطنه أو يُقتلوا . لذلك تراخوا في القتال ، وتركوا خالد ابن سعيد يتقدم دون أن يشبوا له .

أى جيوش المسلمين كان أسرع إلى إمداد خالد بن سعيد ؟ اختلف الرواة في هذا الأمر كما اختلفوا في بدء خالد بغزو الشام كما قلنا . أما والطبري يجعل لخالد هذا السبق ويوافقه ابن الأثير وابن خلدون ومن إلهما على هذا الرأي ، فإننا نساير الطبري وأصحابه الآن في روايتهم ، لنعود إلى رواية الواقدي والأزدى والبلاذري من بعد .

كان عكرمة بن أبي جهل قافلاً من كندة وحضرموت عن طريق اليمن ومكة ، فلما بلغ المدينة أمره أبو بكر أن يسير مدداً لخالد بن سعيد . وكان عكرمة قد سرح الجند الذين قاتلوا معه في جنوب شبه الجزيرة ، فاستبدل الخليفة بهم غيرهم ، وأمرهم أن يسيروا تحت لواء عكرمة إلى الشام ؛ ولذلك سمي هذا الجيش جيش البیدال . وسار ذو الكلالع على رأس الجند الذين صحبوه من اليمن مسرعاً مع عكرمة إلى الشام ، حتى يطمئن خالد بن سعيد ويتابع مسيرته .

وكان عمرو بن العاص مقيماً بقضاة مذ قضى على الردة فيها ، فبعث إليه أبو بكر يخبره أن يبقى حيث هو أو أن يسير إلى الشام ، وكتب له : « وقد أردت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك » . وكان جواب عمرو : « إني سهام من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الراي بها والجامع لنا . فانظر أشدها وأخشأها وأفضلها فارم بها شيئاً إن جاعك من ناحية من النواحي » . وكتب الصديق إلى الوليد بن عتبة بمثل ما كتب به إلى ابن العاص ، فكان جوابه إثارة الجهاد . عند ذلك أمر الخليفة عَمراً على فلسطين ، وكتب إلى الوليد فأمره بالأردن .

سارت هذه الجيوش متجهة إلى الشام ، ولا يشك أبو بكر في أن الله قد فتحه عليه . وكان الوليد بن عتبة أول من أدرك خالد بن سعيد ، وقص عليه أنباء المدد وحماسة أبي بكر لفتح الشام ، وغبطة أهل المدينة بانتصار إخوانهم على بني الأصفر . وفاضت نفس خالد بالمسرة ، فأمر جيشه أن يتهيأ للمسير حتى يكون له من فخار النصر ما يجعاه في قتال الروم نأياً لابن الوليد في قتال الفرس . وتقدم بالمسلمين ومعه الوليد بن عتبة يتقابل جيشاً للروم على رأسه قائدهم

الأكبر باهان ، ونفسه تحدّثه بأن ينقضّس على هذا القائد كما انقضّس ابن الوليد على هُرْمُز ، وأن يورده حتفًا كحتفه . وكيف لا يفعل وقد أدركه عكرمة وذو الكلاع فصار في قوة لا تثبت أمامها قوة ! .

ولم يكن جيش الروم قريبًا منه . مع ذلك تراجع باهان به متجهًا نحو دمشق . وسار خالد في أثره يريد مرج الصفر بين واقوصة ودمشق ، ليتخذ هناك معسكره ومكان قيادته العامة . ولم يكن تراجع باهان إلا خُدعة لاستدراج خصمه حتى يعثر ظهره فيتمكن من حصاره ويحييه من خلفه ، وذلك ما حذر أبو بكر خالدًا منه . لكن نشوة الظفر وحب الفخار أنسياه الحذر ودفعاه يُغَيِّدَ السير ، حتى إذا كان على مقربة من مرج الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية ارتد باهان بجنوده وأحاط به وقطع عليه خط رجعتهم . وصادف باهان سعيد بن خالد بن سعيد في فرقة من العسكر منعزلة عن المسلمين فقتلهم وقتل سعيدًا في مقدمتهم . وبلغ خالدًا مقتل ابنه ، ورأى نفسه قد أحيط به ، فخرج هاربًا في كتيبة من أصحابه على ظهور الخيل والإبل ، تاركًا وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة متقهقرًا .

خدعة الروم  
وفرار خالد بن  
سعيد بعد مقتل  
إبنه

ولم يقف خالد بن سعيد من فراره دون ذى المروة على مقربة من المدينة . وعرف أبو بكر فراره هزيمًا يريد مدينة الرسول ، فأبى ذلك عليه وبعث له بكتاب لقيه بنى المروة جاء فيه : « أقم مكانك . فلعمري إنك مقدم محجّام نجّاء من الغمرات ، لا تخوضها إلى حق ولا تصبر عليه » . وأقام خالد بنى المروة في فلول الفارين معه حسيراً حزينًا لمقتل ابنه وللهزيمة التي حلت به . أما أبو بكر فكان يقول : « كان عمر وعليّ أعلم بخالد مني ، ولو أطحتهما فيه اتقىته » .

أضعف فرار خالد بن سعيد من عزم أبي بكر ففتح الشام ومن حماسته لهذا العزم ؟ كلا ! فقد جاءت الأنبياء بأن عكرمة بن أبي جهل داور بجيوش المسلمين ، وداور معه ذو الكلاع ، فتراجع بهم إلى حدود الشام ، وهناك تحصن ينتظر المدد . فليمدده ، وليكن هذا المدد من القوة بما يزيل كل أثر

أبو بكر يزداد  
حماسة لفتح الشام

لهزيمة ابن سعيد، وما يرد إلى المسلمين الإيمان بالنصر، وما ينزل في قلوب الروم الخوف والهللع .

كان شُرْحِبِيل بن حسنة مع خالد بن الوليد بالعراق . وقد جاء في هذه الآونة إلى المدينة بأبناء النصر وبالسبي والأخماس ، فأمره أبو بكر أن يذهب إلى الشام مكان الوليد بن عُقْبَةَ الذي باء مع خالد بن سعيد بما باء به . وجمع شُرْحِبِيل قوة من جيش ابن سعيد وابن عقبة وسار بها إلى عكرومة . ودعا أبو بكر يزيد بن أبي سفيان فأمره على جند عظيم جلهم من أهل مكة ، ثم أوقفه بأخيه معاوية ، وجعله على بقية الجيش الذي استدركه خالد بن سعيد للغزو معه . وندب الخليفة جيشاً عظيماً جعل عليه أبا عبيدة بن الجراح وأمره على حمص . وكانت هذه الجيوش تُعسكر بالخراف ، فإذا آن لأحدها أن يسير خرج إليه الخليفة وودعه على النحو الذي ودع به جيش أسامة غداة بيعته . وانطلقت هذه الجيوش جميعاً في طريقها إلى الشام مجاهدة في سبيل الله .

وأنت تذكر أن أبا بكر أوصى أسامة حين ودعه وصية تسجل له في تاريخ الحروب بحروف من نور . كذلك فعل مع هذه الجيوش ، قال وهو يودعهم : « ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهي حسبه . ومن عمل لله كفاه الله . عليكم بالجدِّ والقصد فإن القصد أبلغ . ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبه له ، ولا عمل لمن لا نية له ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يجب أن يُنصَحَ به . هذه التجارة التي دل الله عليها ، ونجى بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة » .

وصيته حين توديع  
الجيوش التي عباها  
لغزو الشام

وكان مما قاله ليزيد بن أبي سفيان : « إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعيدهم إياه . وإذا وعظتهم فأوجز ؛ فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . . . وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل

ليتهم حتى يخرجوا من عسكريك وهم جاهلون به . . . وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولى لكلامهم . . . واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار . . . وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس .

المهاجرون  
والأنصار  
يسرون لفتح  
الشام

واطمأن أبو بكر حين ودع هذه الجيوش جميعاً ورأى نصر الله منه قريباً . وكيف لا يطمئن وفي هذه الجيوش زهرة المسلمين مهاجريهم والأنصار ، وفيها ما يزيد على ألف من أصحاب رسول الله الذين سمعوا له وجاهدوا معه ، وفيها أهل بدر الذين قال فيهم رسول الله ينجي ربه : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » ، والذين أمدهم الله بالملائكة ونزل فيهم قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

أين من هؤلاء جيش خالد بن الوليد الذي غزا العراق ومزق الفرس ! لقد تألف هذا الجيش من بقية قليلة من جيش اليمامة ، ثم كان أكثره ممن استنفرهم خالد من أهل البحرين وعُمان ومن قاتل أهل الردة وثبت على الإسلام في هذه النواحي . أفيقاس أولئك إلى الذين شهدوا بدرًا وأحُدًا وحنينًا ، والذين أمدهم رسول الله في حياته بنفحة منه ! ! وهل يقاسون إلى الأبطال أمجاد مكة والمدينة والطائف ممن عركوا الحرب وعركتهم الحرب ! فإن يكن خالد قد غلب الفرس بعرب الجنوب ، فما أحرى عكرمة وأبا عبيدة وابن العاص ويزيد أن يقضوا بجيوش مكة والمدينة على الروم القضاء الحاسم ! .

وأبو بكر لم يبالغ حين بعث هذه الجيوش كلها إلى الشام بعد أن انتصر عسكريه بالعراق . فلو أن أمر المسلمين هناك وقف عند هزيمة خالد بن سعيد لذهب نصرهم بالعراق بددا ، ولاقتحم الروم عليهم شبه الجزيرة ، ولوقف الإسلام من الأسدين فارس والروم موقفًا لا يرضاه الحق جل شأنه . وما كان ذلك ليحدث وأبو بكر في خلافة رسول الله ، وما كان ليحدث ولو لم يبق في القرى غيره ، على حد تعبيره رضى الله عنه عند اختلاف أصحابه معه عشية حروب الردة .

وظل أمراء الجند في مسيرتهم حتى نزلوا الشام . أما عمرو بن العاص فلم يتحرك جيشه من العربية حيث كان منذ أوفده أبو بكر . وأما أبو عبيدة فتحطى البلقاء إلى الجابية بعد أن أخضع من قاومه من عرب مآب وصالحهم . ولقد نزل شرحبيل الأردن ، ونزل يزيد بن أبي سفيان البلقاء ؛ وفي رواية أنه لقي قوة من الروم والبدو في دائن فتغلب عليها . ولقد اختلفت الروايات : ألقى جنود المسلمين حرباً في جنوب فلسطين ، أم تقدموا فيها فلم يجدوا من يواجههم . والراجح أنهم تقدموا حتى صاروا على مقربة من جيش عكرمة ، وأن الروم لم يواجهوهم بقواتهم ، بل تركوا أمرهم لرجال البادية ، وأن ما حدث من وقائع بين العرب والروم في جنوب فلسطين قد حدث من بعد في عهد عمر بن الخطاب .

على أن اضطراب الروايات ينتهي حين تتصل جيوش المسلمين بجيش عكرمة ؛ إذ يعسكر أبو عبيدة على طريق دمشق . ويعسكر شرحبيل في مرتفع بأعلى الغور فوق طبرية ونهر الأردن ، ويظل يزيد باللقاء مهدداً بصصرى ، ويبقى عمرو بالعربية مهدداً حبرون . وفي هذه المواقع وقفت الجيوش يتداول أمراءها الرأي ما يصنعون .

ذلك أن الروم لم يكثرثوا أول الأمر لهم ، بل خيّل إليهم أن هؤلاء العرب لن يتقدموا إلى أكثر مما تقدم محمد من قبل في غزوة تبوك ، وأنهم عائدون أدراجهم لا محالة . فلما هُزم خالد بن سعيد وفرّ من الميدان ازدادوا طمأنينة إلى ما توهّموا ، وظنوا أن ما يترامى إليهم من أنباء المسلمين وتجهيزهم مدداً لعكرمة على حدود الشام لن يزعجهم ، ولن يكون مصيره إلا كصير خالد بن سعيد . فلما رأوهم تقدموا إلى المواقع التي ذكرنا أفاقوا من سبّاتهم ورأوا الأمر أجلاً خطراً من أن يستهينوا به ، وأدركوا أنهم إن لم يواجهوه بكل قوتهم أصابهم ما أصاب فارس ، وفتح هؤلاء الغزاة المسلمون الشام كما فتحوا العراق . لذلك سير هيرقل إليهم قوات عظيمة ، وقفت كل واحدة منها لزاء كل جيش من جيوش المسلمين ، حتى يشتغل بعضهم عن بعض فيسهل التغلب عليهم وطردهم من البلاد .

الروم يتجهزون  
لمواجهة المسلمين

وتجربى الرواية فى أمر الجيوش من الجانيين بأن عدد المسلمين كان ثلاثين ألفاً أو نحوها ، وأن جيوش الروم بلغت عدتها أربعين ومئى ألف . قيل إن جيش عكرمة كان ستة آلاف ، وإن الجيوش الثلاثة الأخرى بإمارة أبى عبيدة ويزيد وعمرو بن العاص كانت ترجح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف لكل منها . أما جيوش الروم فكان أكبرها عدداً بإمارة تدارق ( تيودوريك ) أخى هرقل لأبيه وأمه ، وكانت عدته تسعين ألفاً ، وقد عسكر بإزاء عمرو ابن العاص . ووقف جيش عدته ستون ألفاً بإمارة الفيقار بن نسطوس بإزاء أبى عبيدة . أما شُرْحَبِيل بن حسنة فاستقبل الدراقص على قوة من الروم عدتها أربعون ألفاً واستقبل جرجة بن تدارق جيش يزيد بن أبى سفيان .

رأى المسلمون هذه الجيوش فهابوها وتداولوا فى موقفهم منها . فهم لم يكونوا يتوقعون مقاومة منظمة هذا التنظيم . ثم إنهم علموا أن هرقل تحصن بمحص ، وأنه يتتبع أنباء الغزاة بعناية بالغة ، وأنه منذ علم بقدوم الجموع العربية إلى أراضى الإمبراطورية قد جعل كل همه إلى الاحتفاظ بالسلطان الذى كفله النصر على فارس له . أما وقد كان أخوه تدارق قائد الجيوش التى غلبت الأعاجم وعادت تتقدمها أعلام النصر ، فليكن قائد الحملة على العرب ليظهر أرض المعاد منهم ، وليلقى عليهم درساً لا ينسونه أبداً الدهر .

هاب المسلمون جيوش الروم حين رأوها يخطئها العد ، ففزعوا بالكتب وبالرسل إلى عمرو بن العاص يلتمسون عنده الرأى . ورأى عمرو أنهم لا يستطيعون لقاء الروم متفرقين فكاتبهم يقول : « إن الرأى الاجتماع . وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، فأما إن تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا » . وجاءهم كتاب من أبى بكر بمثل رأى عمرو ، وفيه : « اجتمعوا عسكرياً واحداً ، وألقوا زحف المشركين يزحفكم فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره . ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة عليها بذنوبهم . فاحترسوا من الذنوب ، والله ناصركم » وإتعد المسلمون البيروك على طريق دمشق ، واجتمعت قواتهم كلها على شاطئه

كتاب أبى بكر  
لأمراء الجند أن  
يجتمعوا عسكرياً  
واحداً

الأيسر . فلما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطئ الأيمن للنهر وتولى تذارق قيادتها .

ونهر اليرموك ينبع من جبال حوران . وينحدر سريع التيار بين آكام مختلفة الارتفاع إلى غور الأردن وإلى البحر الميت . وعلى ثلاثين أو أربعين ميلاً من ملتقى اليرموك بنهر الأردن تقع واقوسة في منبطح فسيح من الأرض تحيط به من ثلاث نواح جبال بالغة الارتفاع . وقد اختار الروم هذا المنبطح معسكراً لهم حين رأوه يتسع لجموعهم العظيمة . فلما قدموا إليه واستقروا به تخطى المسلمون النهر إلى ضفته اليمنى واختاروا منبطحاً آخر على الطريق المفتوح لجيش الروم ، فلم يبق للروم طريق إلا عليهم . ورأى عمرو بن العاص هذا الموقف ، ورأى الروم حُصرت بين الجبال ، فقال : « أيها الناس أبشروا ! حُصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير ! » .

انتقاء المسلمين  
والروم على  
اليرموك

عن أى شيء أسفر الموقف الجديد ؟ ! أفهاجم المسلمون الروم في بطيحتهم فحصرهم فيه ففمضوا عليهم ؟ أخرج الروم فلاقوا المسلمون فأتاح لهم تفوقهم في العدد الظفر بهم ؟ لا هذا ولا ذلك ؛ بل أقام المسلمون على طريق الروم ومخرجهم لا يقدرون منهم على شيء ، ولا يقدر الروم منهم على شيء . إذا خرج الروم على الطريق ردهم المسلمون إلى بطيحتهم . وإذا غامر المسلمون بالهجوم لم يلبثوا أن يراجعوا مخافة أن يحصرهم الروم بينهم وأن يقضوا عليهم ، وأقام هؤلاء وأولئك على هذه الحال شهرين كاملين أيقن المسلمون خلالهما أنه لا بدّ لهم من مدد يعينهم ، فكتبوا إلى أبي بكر يصفون له الحال ويستمدونه ، حتى لا يظلوا الشهور ، فيسأم الجند ويضعف إيمانهم بالنصر وتذهب ريحهم .

وكان أبو بكر أشد من أمراء الجند بالشام ضجراً ؛ فلم يدُرْ بخلده أن يقف أبو عبيدة وزملاؤه هذا الموقف ، ولم يحسب أن البدرين الذين غلبوا على قلتهم أهل مكة من المشركين يطيقون هذا المقام بإزاء الروم لا يقتلون ولا يُقتلون . وطل تفكير الخليفة في هذا الأمر . وجعل يشاور ابن الخطاب وعلى بن أبي طالب

أبو بكر يضيّق  
صدراً بموقف  
جيوشه على  
اليرموك

وسائر أولى الرأى المقيمين بالمدينة . وبينما هو يفكر انكشفت له الحقيقة جلية واضحة . إن المسلمين لم ينتصروا يوماً بكثرة عددهم ، وإنما انتصروا دائماً بمهارة القيادة ، وبقوة الإيمان . والإيمان لا ينقص جيوش الشام وفيها السابقون الأولون من أصحاب رسول الله مهاجريهم والأنصار، وفيها أهل بدر الذين فتحوا مكة ومن انتصروا على أهل الردة . لا بد أن تكون العلة إذن في القيادة . فهذا الموقف يحتاج إلى القائد الجسور الذى لا يعرف الهوادة ولا الإحجام ولا يهاب الموت . وأبو عبيدة على مقدرته رجل رقيق القلب . وابن العاص على دهائه في السياسة هيّاب غير مقدم . وعكرمة مداور مقدم إلا أنه تعوزه دقة التقدير . وسائر القواد لم يخوضوا بعد المعارك الكبرى ؛ ثم إن هؤلاء الأمراء جميعاً لا يقرون لواحد منهم بالتفوق على سائرهم تفوقاً يكفل بسلطانه وحدة القيادة . تكشفنا هذه الحقيقة لأبي بكر جليّة واضحة ، فقال لأصحابه : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

خالد بن الوليد  
يدعى من العراق  
إلى الشام

لم يعترض أحد رأى الخليفة هذا ؛ فقد بلغ الموقف في الشام من الحرج أن ترددوا جميعاً في احتمال تبعته . ولعل منهم من رأى في تعريض خالد لهذا الموقف الدقيق ما ينهته من كبريائه بعد نصره المتصل في حروب الردة ، وبلوغه قمة النصر في العراق . وكتب أبو بكر إلى خالد بالحيرة يقول : « سير حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ؛ فإنهم قد شَجَّجُوا وأشَجَّجُوا<sup>(١)</sup> . وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يُشَجَّجِ الجُمُوع من الناس<sup>(٢)</sup> بعون الله شججك ، ولم ينزع الشجج من الناس نزعك . فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة . فأتمم يُتميم الله لك . ولا يدخلنك عجب فتخسر وتُخذَل . وإياك أن تدلّ بعمل ؛ فإن الله عز وجل له المنُّ وهو وليّ الجزاء » .

أى أثر ترك هذا الخطاب في نفس خالد ! إنه كان يرجو أن يظل بالعراق ضيق خالد بهذه الدعوة

(١) الشجج هنا : الفصص . يريد أن المسلمين ضاقتوا بدمهم وضيقوا عليه حتى كان بعضهم لبعض كالشجج في الخلق .

(٢) من الناس : صفة لمخدوف هو فاعل « لم يشجج » و « لم ينزع » . أى لم يشجج أعداءه أحد من الناس كما تشججهم أنت ، ولم ينزع الشجج من أوليائه أحد من الناس نزعك . وحذف الموصوف في مثل هذا جائز .

حتى يفتح المدائن عاصمة الفرس ويتربع فيها على عرش كسرى وخلفائه . ولم يخالجه في بلوغ هذا الغرض ريب . فقد سير غور الفرس وعرف قوتهم . وفتح المدائن فخاراً لا فخار بعده . فما اليمامة وما الحيرة وما هُرْمُز وقواد فارس جميعاً بالقياس إلى العاصمة التي يتطلع إليها قيصر الروم ويتطلع إليها العالم من كل نواحيه ، وبالقياس إلى كسرى وإيوانه وأبهة ملكه ! لا مزية إذن في أن يكون خالد قد برم بكتاب أبي بكر وضاق به صدره . ولعله رأى فيه كيد عمر ابن الخطاب له . روى الطبري أنه قال بعد ثلاثه : « هذا عمل الأعميس ابن أم سخلثة - يعنى عمر بن الخطاب - حسدنى أن يكون فتح العراق على يدي » . بل لعله ظن أن عمر طمع في أن يجيء إلى العراق مكانه . وإن يكن هذا الظن قد دار بخاطره فلعله لم يكن مخبطاً ولا آثماً فيه . فقد روى عن أبي بكر أنه قال وهو في مرضه الأخير : « وددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يدي كليهما في سبيل الله » .

ولقد توقع أبو بكر أن تدور مثل هذه الخواطر بنفس خالد فيكون لها أثر في تصرفه ، ولذلك قال له : « إياك أن تعود لمثل ما فعلت » ، يشير إلى حجه بغير استئذان ، وينبهه إلى أن واجبه الأول أن ينفذ أمر الخليفة إليه ، وألا يقوم بعمل لا يرضاه . وأكبر الظن أن ما توقعه الخليفة من برم خالد بترك العراق هو الذى جعله يفرغ كتابه في هذه الصيغة وفيها ما فيها من تمليق خالد وكبريائه ، وفيها ما فيها من تخريفه الحسارة والخذلان إن دخله العجب أو دلَّ بعمل ؛ « فإن الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء » .

بل لقد أراد أبو بكر أن يزيل من نفس خالد كل مظنة ، فأمره أن يستخلف المنثى بن حارثة على العراق في نصف الناس وأن يأخذ معه النصف ، ثم أضاف في ختام كتابه : « فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ، ثم أنت على عملك »<sup>(١)</sup> . لا خوف إذن من أن يجيء إلى العراق عمر أو غير عمر ، فالمنثى هو الذى سيخلفه ، فإذا فتح الله الشام على خالد عاد إلى العراق .

كيف حجب  
أبو بكر إليه  
هذه المهمة

( ١ ) وفي رواية : « فإذا فتح الله على المسلمين الشام فارجع إلى عملك بالعراق » .

ولم يكُ خالد في ريب من أن الله سيفتحة عليه . ولئن بلغه من أنباء المسلمين هناك ما بلغه ، لقد كان مطمئناً إلى أنه سيف الله وأنه لن يغلب ، فليمثل أمر أبي بكر وليذهب للقراء الروم . و « إن يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » ، ذلك قوله تعالى في المؤمنين . وليس كإيمان خالد إيمان ، وليس كسيف الله سيف مؤمن .

ويوم يهزم خالد الروم فذلك يوم الفصل الأكبر . ويومئذ لا يقول ابن الخطاب مثل الذي قاله في أعقاب مقتل مالك بن نويرة ، وفي أعقاب غزوة اليمامة . ويومئذ لا يكون لطامع في العراق مطمع . بل يرجع هو إلى الحيرة فيتأهب لفتح المدائن وفضّس إيوان كسرى على من فيه ، ثم يسير غازياً أرض العجم ما شاء الله أن يسير .

على أن خالد أقدر ما سيواجهه بأرض الروم ، فأحضر أصحاب رسول الله جيش خالد للشام الذين كانوا معه بالعراق واستأثر بهم لنفسه ، وترك للمثنى مثل عددهم ممن لم يكن له مع الرسول صحبة . ونظر بعد ذلك فيمن بقي ، فاختر من كان قدم على النبي وافداً أو غير وافد وترك للمثنى مثل عددهم من أهل القناعة ، ثم قسم سائر الجند قسمين . فلما رأى المثنى صنيعة غضب وقال : « والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وكيف تُعزّينى منهم ! والله ما أرجو النصر إلا بهم ! » . فلما رأى خالد ذلك منه تلكأ عليه بعض الشيء ، ثم عذره وأرضاه وأعاضه من الصحابة أبطالا مجريين .

مع هذا خشى خالد أن يُصيب المسلمين بالعراق شرّ بعد مغادرته إياهم ، فرد الضعفاء والنساء منهم إلى المدينة ، حتى لا يشغل المثنى بهم إذا أراد الفرس مناجزته . ولما اطمأن إلى مسيرتهم تجهز فيمن معه من الجند للسفر إلى الشام . وخرج المثنى في كتيبة من الجند فشيّعه إلى تخوم الصحراء .

أى طريق يسلك ليُسسى الروم وساوس الشيطان ؟ إن بينه وبين الشام أى طريق يسلكه خالد ؟  
صحراء جرداء لا تطرقها قافلة ويضل في مفاوزها الدليل الخريت ! أيتخطى

البادية من الشمال بين عين التمر وما حاذاها من بلاد الشام ؟ ذلك أقصر الطرق خلال البادية . لكن قبائل العرب النازاة منه على تخوم الشام موالية كلها للروم ، ولقيصر ثم جند مقيمون قد يلتونه فيقطعون عليه طريقه . أفينحدر إلى بلاد العرب ثم يأخذ الطريق التي سلكها عكرمة وأبو عبيدة وسائر الأمراء قبله ؟ إنه إن يفعل فلن يبلغ جيوش المسلمين إلا بعد أمد طويل . ماذا يصنع إذن حتى يتقى مقاومة العدو ويقهر طول الأمد ؟ ! إلى هذا انصرف تفكير القائد العبقري . وتفكير العباقرة لا يوجهه المنطق وإنما يهديه الإلهام ؛ فليس لنا معشر الناس إلا أن نسير وراء القائد الملهم لا نراجع منطقته ولا نسأله عما يفعل . ومالنا نسأله أو نراجعه ! ألم يسر بنا من ظفر إلى ظفر ! لقد سحر ألبابنا وملك أفئدتنا من قبل حين وقفنا معه مواقف أرتنا الموت رأى العين ، ثم خرجنا وإياه من المعمة متوجين بأكاليل النصر . فالتق إليه قيادنا مطمئنين ؛ فهو سيف الله ، والله ناصره لا محالة .

والواقع أن مسيرة خالد من العراق إلى الشام أدنى إلى القصص الروائي منها إلى الحقيقة الواقعة . ذلك أيسر ما يقال عن أشهر الروايات فيها وأكثرها قصداً . ولذلك يمر بعض المؤرخين بها لا يقفون عندها ، ويكتفى بعضهم بالإشارة إليها ، ويقدمها ابن خلدون لقارئه بكلمة « ويقال » . ولم يفصلها أحدٌ ما فصلها ابن قتيبة في بعض كتبه . ونقاد ابن قتيبة يذكرون عنه أنه مؤرخ أديب شديد الولع بالقصص . على أن الوقائع الأساسية في هذه الرواية مذكورة في تاريخ الطبري وفي ابن الأثير وفي أكثر الكتب . وقد يكون فيها ما يحيرُ اللب ويذهل الذهن . لكن أعمال خالد ، عبقري الحرب وأكبر قائد عرفه العالم في عصره ، لا تخضع كلها للمقاييس المطردة في أمر غيره من القواد . فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرنا غير مرة من اضطراب الروايات عن عهد أبي بكر ، قام هذا وذلك عذراً للمؤرخين جميعاً ، سواء منهم من يثبت هذه الرواية المشهورة ومن يتخطاها أو يبدي الريبة فيها .

القصة المشهورة  
في اجتياز خالد  
الصحراء إلى  
الشام

وتذهب هذه الرواية إلى أن خالداً لم ير اجتياز الصحراء من عين التمر إلى شمال الشام ، مع قصر هذا الطريق ، مخافة القبائل الموالية للروم والحيوش

الجاثمة في هذا الجانب من إمبراطورية قيصر . لذلك انحدر بجيشه إلى دومة الجندل في طريقه الذي سلكه حين ذهب من الحيرة مدداً لعياض بن غنم<sup>(١)</sup> . ومن دومة سلك خالد طريق وادي سرحان ، حتى إذا بلغ قُرَاقِرِ أغار على أهلها من بني كلب . ولو أنه تابع مسيرته في طريق الوادي لبلغ بُصرى في أيام ، ولإتصل بجيش أبي عبيدة وسائر جيوش المسلمين على اليرموك . لكنه قدر أنه ربما لقي من جيوش الروم قبل بُصرى من يصده عن غايته أو يُطيل مكثه دونها . لذلك قال لأصحابه : « كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ؛ فإنني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين » . وأجابوه كلهم : « لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش وإنما يأخذه الفذ الراكب . فياك أن تغرر بالمسلمين » . لكن خالداً كان قد عزم سلوك هذا الطريق ، فقام إلى أصحابه فقال لهم : « لا يختلفن هديكم ، ولا يضعن يقينكم . واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكثر لشيء يقع فيه مع معونة الله له » . وتحمس أصحابه حين سمعوا قوله هذا ، فكان ردهم عليه : « أذت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك » .

حديث رافع بن  
عميرة الطائي

والتمس خالد دليلاً يسلك به هذه الطريق ، فجىء برافع بن عميرة الطائي ، فقال له : « انطلق بالناس » . قال رافع : « إنك لن تطيق ذلك بالليل والأنفال . والله إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه . إنها لحمس ليال لا يصاب فيها ماء » . وحدث إليه خالد وقال : « لا بد والله من ذلك ، فمر بأمرك » . وكان رافع قد سمع حديث خالد لأصحابه ورأى إقرارهم إياه ، وأيقن أن لا مفر من تفض أمره ، فقال : « استكثروا إذن من الماء . من استطاع منكم أن يصرّ أذن ناقته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك إلا ما دفع الله » . وطلب إلى خالد أن يجيئوه بما استطاعوا من إبل سمان . فلما جاءوه بها عمد إليها فظمأها ، حتى إذا أجهدها عطشاً أوردتها الماء عللاً بعد نهل<sup>(٢)</sup> فلما امتلأت صرّ آذانها وشد مشاقرها لكلا تجرّ . وانطلق خالد بن الوليد بالجيش يتقدمه رافع .

( ١ ) راجع ص ٢٢٣ من هذا الكتاب .

( ٢ ) العلل : الشربة الثانية . والنهل : الشربة الأولى .

وقضوا خمسة أيام يسرون في وحشة الصحراء وحدثها وكل اعتمادهم بعد الله على دليلهم ؛ ينزلون في كل يوم فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء ، ثم يشقون بطون عدد من هذه الإبل التي اتخذوها صهاريج ويخرجون الماء منها ويسقونه الخيل . فلما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله : « ويحك يا رافع ! ما عندك ؟ » قال رافع : « خير . . . أدركتم الرىَّ إن شاء الله ، وأنتم على الماء » . وكان رافع أرمد فأدار رأسه يمناً ويسرة ثم قال : « أيها الناس ، انظروا علمين كأنهما ثديان » . فلما أتوهما وقف عليهما وقال : « انظروا ، هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ » قالوا : ما نراها . قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون . هلكتم إذن والله وهلكتُ لا أبالكم ! اضربوا يمناً ويسرة » . فنظروا فوجدوا الشجرة قد قطعت وبقيت منها بقية . فلما رآها المسلمون كبروا وكبر رافع ، ثم قال : « احفروا في أصلها » ، فحفروا فتبع الماء من عين فشرب الناس حتى رويوا . فلما اطمأنوا إلى السلامة قال رافع : « والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام » .

خالد يبلغ الشام ويمسك بجنده للجوار زملائه

أدرك خالد وجيشه الرىَّ حين بلغوا هذا المكان ، وأدركوا عنده مفاتيح الشام . ودخل خالد سوى قبيل الصبح فأغار على أهلها من بهراء . وفزع الناس حين رأوا المسابين ، ولم يطيقوا مقاومتهم فأذعنوا طوعاً أو كرهاً . وسلم أهل تدْمُر بعد مقاومة يسيرة . ولم ير خالد أن يهاجم دمشق وهو إنما جاء مدداً لجيوش المسلمين المقيمة على اليرموك . فسلك غير بعيد طريق حواريين ، حتى إذا أتى قُصَم صالح أهلها قضاة ، ومنها انحدر إلى أذرعات ، وأغار على غسان بمرج راهط ، ثم سار حتى نزل على قناة بصرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل ابن حسنة ويزيد بن أبي سفيان . وتقدمهم خالد فافتحموا بصرى وفتحها الله عليهم . ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمر بن العاص بالعربيات عند الغَوْر . وعسكر خالد بجنوده إلى جوار زملائه ، وبذلك اكتمل جمع المسلمين على اليرموك .

هذه هي الرواية المشهورة عن سير خالد من العراق إلى الشام . وأنت ترى أنها أقرب إلى القصص الروائي وإن تضافرت روايات المؤرخين عليها . واجتياز

المفازة بدلالة رافع بن عميرة أعجب ما فيها . على أن هذا العجب لم يمنع من تصديقها ، أن كان لخالد ما هو أعجب منها ؛ فانهلده من عين التمر لغياث عياض بن غمّ أمام دومة بعض هذا العجب . وحيجّة خالد في سرّ من الناس عجب أيضاً . وحروب خالد باليمامة وفتح العراق عجب كل العجب . وهو إنما كان يختار أقرب الطرق إلى الظفر وأدناها إلى بلوغ النصر . وهذه المفازة التي اجتازها قد بعدت به عن مخاطر أراد اتقاءها ، وأدنته من لقاء جيش المسلمين . فلا عجب أن تصدق الرواية عنها ، ولا عجب أن يتخذ خالد هذا الطريق طريقه ، وإن حيّر ذلك ألبابنا وأذهل أذهاننا .

عدد القوات التي  
سارت مع خالد  
من العراق

أراد بعض المؤلفين الذين أقرأوا هذه الرواية أن ينفوا عنها كل ما يبعد بها عن مقتضى العقل . اختلف في عدد الجيش الذي سار به خالد من العراق ، فقليل كان تسعة آلاف ، وقيل ستة آلاف ، وذهب بعضهم إلى أنه ثمانمائة ، أو ستمائة ، أو خمسمائة . وأصحاب الرواية الأولى يذكرون أن خالداً سار بنصف الجيش الذي كان بالعراق تنفيذاً لأمر أبي بكر ، وكان هذا الجيش ثمانية عشر ألفاً أو نحوها . أما الذين يذكرون أن هذا الجيش كان دون الألف فيؤيدون رأيهم بأن القصد من مسيرة خالد إلى الشام إنما كان لعبقرته في القيادة ؛ أما الجيوش التي كانت تواجه الروم فلم تكن قليلة العدد ، وكان المدد يجيء لها من المدينة متصلاً ؛ فمسيرة خالد في عدد قليل مقصودة حتى لا تحول ضخامة العدد بينه وبين السرعة في نجدة من رأهم الخليفة في حاجة إلى نجده .

ويتوسط بعضهم فيذهب إلى أن خالداً فصل من العراق في النصف من جيشه ، فلما بلغ قُراقر وعزم اجتياز المفازة سار خلالها في بضع مئات ، وتابع سائر الجيش مسيرته بوادي سرحان حتى اتصل بجيوش المسلمين عند بُصرى . وليس هذا الرأي بالمستحيل وإن اعترض عليه بأن مخافة خالد أن تستقبله جموع الروم فتحبسه عن غياث المساميين تطعن على خالد أنه عرض القسم الأكبر من جيشه لأمر لم يرد أن يتعرض له هو ومن اختارهم للسير معه .

وأياً كان الرأي في مسيرة خالد وفي الجيش الذي صحبه من العراق فإنه الصديق أبو بكر

خالد و باهان  
يصلان إلى  
البرموك في وقت  
واحد

أدرك المسلمون بالبرموك وقام معهم لقتال الروم . ولقد صادف مجيئه أن عزز هيرقل جيشه بباهان القائد القادر الذي هزم خالد بن سعيد . واغتبط الروم بباهان اغتباط المسلمين بخالد بن الوليد . وأقام الجيشان يتحسّين كل منهما فرصة النزال يريدان موأية ليتم له بها النصر على عدوه .

والحق أنه كان موقفًا بالغًا غاية الدقة . ولم تكن كل دقته في فرق ما بين الجيشين في العدد ، إذ كان المسلمون لا يزيدون على أربعين ألفًا ، في حين كان الروم أربعين ومائتي ألف ؛ بل كانت دقته كذلك في تفوق عدّة الروم على عدّة المسلمين . لم يكن هذا التفوق مما نعهده بين الجيوش في عصرنا الحاضر ، فلم يكن الروم بأعلم من العرب بأساليب الحرب ؛ لكنه كان تفوقًا يضاف إلى العدد فيزيده بأسًا وإن لم يظهر له أثر طيلة الشهرين اللذين انقضيا منذ جمع المسلمون وجمع الروم قواتهم على البرموك . وعلة ذلك أن المسلمين كانوا يتفوقون على الروم بقوتهم المعنوية . كانت جموع الروم خليطًا من البدو المقيمين بالشام ومن جيوش هرقل التي غزت الفرس من قبل . ولم تكن بين هؤلاء وأولئك رابطة تجمعهم ، ولم يكن لهم مثل أعلى يجاهدون في سبيله . أما المسلمون فكانوا جميعًا من العرب ، وكانوا جميعًا يؤمنون بأنهم في غزوهم الروم يجاهدون في سبيل الله حق جهاده ، فمن استشهد منهم فله الجنة فيها نعيم مقيم ومغفرة من الله ورضوان ، ومن لم يؤت الشهادة كُتِب له جهاده عند الله ، ثم كان له من مغنم الحرب ما يزيده حبًّا فيها وإقبالاً عليها . ترى لأى القوتين في هذا الموقف يكون الغلب : قوة العدد أم قوة الإيمان ؟ ! قوة المادة أم قوة الروح ؟ ! .

وتعاقبت الأيام وانقضى أسبوع وأسبوعان وثلاثة أسابيع والجيشان في موقفهما لا تحين لأيهما فرصة النزال . كيف أطاق خالد بن الوليد هذا الموقف وما صبر قط لمثله من قبل ؟ أفراغته كثرة جيوش الروم فهابها كما هابها زملاؤه ؟ أم كان يدرس الموقف ويفكر في أسباب النصر ؟ ! أم أن عوامل أخرى كان لها في نفسه من الأثر ما قعد به كل هذا الزمن عن القيام بهجوم ؟ كل ما تذكره الروايات أن جيش المسلمين لم يكن موحد القيادة ، وأن خالدًا جاء من العراق

مدداً لزملائه ولم يجئ أميراً عليهم . بل لقد كان الأذان للصلاة ينادى به في كل معسكر على حدة ، وكان كل أمير من أمراء الجند ينظم خطته بما يكفل عدم تراجعهم . لذلك لم يستطع خالد أن يقوم بهجوم وحده ، وليس في إمرته على أكثر تقدير غير تسعة الآلاف الذين جاءوا معه من العراق . وقد أدى هذا التفرق في القيادة إلى هجمات من جانب الروم ردها المسلمون ثم قعد بهم تفرق القيادة عن القيام بمثلها .

جمود الموقف  
وكيف الخروج  
منه

ماذا يستطيع خالد أن يفعل في مثل هذا الموقف ؟ إن أبا بكر لم يولّه إمارة الجيش حين كتب إليه بالسير من العراق إلى الشام . فلو أنه طلب أن يتولاها لأوغر صدر زملائه ولأقام بالمدينة قيامة خصومه وعلى رأسهم عمر بن الخطاب . لكن البقاء في هذا الموقف على ضفة اليرموك يُزرى به ويذهب عزم المسلمين . والروم ينشطون كل يوم وينظّمون صفوفهم ، وتدل أنباؤهم على أنهم يتجهزون لموقعة حاسمة . وقد عرف أمراء الجند من زملاء خالد هذه الأنباء . أفلا يستطيع أن يُقنعهم برأيه في وحدة القيادة ؟ ! لكنه لا يثق بأحد منهم ما يثق بنفسه . وهو إن دعا إلى أبي عبيدة أو إلى عمرو مثلاً أغضب سائر الأمراء . فإذا عساه يصنع ؟ ! .

تواترت الأنباء بتجهز الروم وحماستهم لقتال المسلمين بعد أن جاءهم باهان بعدد كبير من القيسيين أقاموا شهراً يحرضونهم وينعون لهم النصرانية إذا لم يقض على هؤلاء العرب البغاة القضاء الأخير . بل لقد تراءى إلى أمراء الجند على المسلمين أن الروم سينازلونهم في غدهم . وأن باهان صفهم للقتال صفّاً لم يسمع أحد من قبل بمثله . عند ذلك ريعوا واجتمعوا يتشاورون ما يصنعون .

خطاب خالد بن  
الوليد في زملائه  
عن الموقف

ويدعوا الحديث عن كل أمير منهم ووجهته للقاء العدو . أما تعبئة الجيش فلم يتناولها البحث إذ كان كل أمير صاحب الرأي في صف جنوده . فلما آن لابن الوليد أن يتكلم حميد الله وأثنى عليه وقال : « إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى . أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فهذا يوم له ما بعده . ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك

لا يحل ولا ينبغي . وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتة . أمسك الأمراء عن القول هنيهة بعد الذي سمعوا من خالد . إنه على حق . وآية ذلك بقاؤهم شهرين قبل مجيئه وشهراً بعده وهم لا يقدرّون من أمر الروم على شيء . وقد تجهز الروم فعبثوا ، ترى لو أنهم ظفروا بالمسلمين وردوهم ، فلمن تكون الإمارات التي وعد أبو بكر بها هؤلاء الأمراء ؟ لمن تكون حمص إذا لم يدركها أبو عبيدة ، ولن تكون اللقاء إذا لم يُقم بها يزيد ؟ ولن تكون الأردن إذا جلا عنها سُرحبيل ، والعربة إذا أخلاها ابن العاص ؟ وإذا ظفر الروم بالمسلمين فكيف يرجع هؤلاء الأمراء إلى المدينة وقد فصلوا عنها مدداً لعكرمة بعد أن أصاب خالد بن سعيد من خزي الهزيمة ما أصابه ؟ ! .

مرّ ذلك كله بخاطر الأمراء حين سمعوا خالداً ، فقالوا له بعد هنيهة : « هات ! فما الرأي ؟ » قال : « إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سستياسر . ولو علم بالذي كان ويكون لقد صحبكم . إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ! فقد أفرد كل رجل منكم ببيلد لا ينتقصه منه إن دان لغيره من الأمراء ، ولا يزيده عليه إن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ، هلموا ! فإن هؤلاء قد تهيئوا ، وإن هذا يوم له ما بعده ؛ إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردّهم ، وإن هزمونا لم نُفلج بعدها . هلموا فانتعاور الإمارة ، فليكن بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى تتأمروا كلكم ، ودعوني أتأمر اليوم » .

ولم يتردد القوم في إجابة خالد إلى ما طلب بعد أن سمعوا كلامه . وما لهم لا يؤمرونه اليوم الأول وهذه المعركة لا ريب تطول ، وإن هي إلا واحدة من المعارك التي تطاولت ثلاثة أشهر والتي توشك أن تمتد حتى يتداول كل واحد منهم إمارة الجيش مرات ! وهون عليهم ما بلغهم من تجهز الروم أن يدعوا خالداً يتلقى الصدمة الأولى لأنه قد عرض نفسه لها . وما كان لأحدهم أن ينكر مقدرته عليها وهو غازي اليمامة وفتح العراق .

خالد يتولى إمارة  
الجيش العامة أول  
يوم للمعركة

وكان خالد أثناء هذا الشهر الذى أقامه بالشام قد عرف من أسرار قيادة الروم ما طوع لعبقريته أن ترسم الخطة لملاقاتهم والظفر بهم . لذلك عبأ الجيش فرقاً ، أو كراديس على تعبير المؤرخين ، كل كُرْدوس منها ألف رجل ، وجعل على كراديس القلب أبا عبيدة ، وعلى كراديس الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة ، وعلى كراديس المسرة يزيد بن أبى سفيان ، وجعل على كل كردوس رجلاً من القادة الشجعان أمثال القعقاع وعكرمة وصفوان ابن أمية ومن إليهم . وهذه تعبئة لم تعبئها العرب من قبل ؛ وإنما سوغها خالد بقوله لأصحابه : « إن عدوكم قد كثُر وطغى ، وليس أكثر في رأى العين من الكراديس » .

وعهد خالد إلى أبى سفيان فى مهمة القاص ، فكان ينتقل بين الكراديس فيقول : « الله ، الله ! إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا اليوم من أيامك ؟ أنزل نصرك على عبادك ! » .

إنما تكثر الجيوش  
بالنصر وتقل  
بالخذلان

وسمع خالد رجلاً يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » فغضب حين سمعها وصاح : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال . والله لو ددت أن الأشقر برئ من تَوَجَّيْهِه وأنهم أضعفوا فى العدد . والأشقر فرسه ، وكان حقيقى فى مسيره بالمفازة . وانتشرت عبارات خالد هذه فى المعسكر ، وجعل الجنود يتناقلونها من كردوس إلى كردوس ، فتلهب النفوس حمية وتوقظ فى القلوب الشوق إلى الاستشهاد . بل لقد تكررت على كل الألسنة كلمته : « إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان » . وذكروا جميعاً غزواته وذكروا قبلها غزوات الرسول . وكيف لا يذكرونها وبينهم ألف رجل من أصحاب رسول الله ، منهم مائة من أهل بئر ! . وخالد بن الوليد هذا ، أليس هو الذى دوخ الفرس وحطم جيوشهم ، وكانوا بالنسبة لجيشه بالعراق كجيوش الروم بالنسبة لهم عدداً ! النصر إذن آت لا محالة . وإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم .

وسرت إلى قلوب المسلمين قوة لم يكن لهم بمثلها عهد منذ نزلوا الشام .

فقد أيقنوا أن خالد أراد لهذا اليوم أن يكون يوم الفصل . وهم يعلمون أن خالدًا إذا أراد لم تردّه قوة عن عزمه . ثم لأنهم رأوا الروم تهيئوا من جانبهم إلى موقعة حاسمة فليس إلى اتقائها سبيل . صدق إذن والله خالد : هذا يوم من أيام الله ، يستحب فيه الاستشهاد ، وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتوهب فيه الحياة لمن حرص على الموت . لذلك تقدم القادة صفوفهم ، هذا يرتجز ، وذلك يرتجل ، والثالث يتمثل ، وكلهم ينتظر الأمر بالهجوم بصبر نافذ وعزم ثابت على النصر أو الموت .

اتصلت بالروم أنباء عن تجهز المسلمين كما اتصل بالمسلمين نبأ تجهزهم ، أن كان بعض البدو من تلك الأصقاع ينقلون الأنبياء متجسسين بين العسكريين . وقد عرف خالد من هؤلاء البدو أسرار قيادة الروم ، كما عرف فزع بعض أمرائهم حين علموا بمقدمه من العراق . وكان چرچة أكثر هؤلاء الأمراء فزعًا . ولعل چرچة هذا كان عربيًّا ، أو روميًّا أقام بالشام السنين الطوال ، فعرف العربية وسمع بأنباء المسلمين . ولقد مال قلبه إلى خالد حين نقل له المتجسسون أنباء نصره ، وعرف خالد ذلك عنه . فلما صدرت أوامر باهان إلى جيوش الروم بالزحف على المسلمين كان چرچة بجيشه في الطلبة ، فتلقاه خالد وفسح له ولعسكره طريقًا . وظن فيلق من الروم أن چرچة في حاجة إلى المدد فانقضوا على المسلمين فأزاحوهم عن مواقعهم وحملوهم على التراجع .

غزوة اليرموك

كان عكرمة بن أبي جهل على كردوسه أمام فسطاط خالد بن الوليد . وقد رأى تسليم چرچة وجنوده فاستراح له . فلما رأى هجمة فيلق الروم وتراجع المسلمين أمامهم ثار في عروقه دمه وصاح في وجه الروم : « قاتلتُ رسول الله في كل موطن وأفرّ منكم اليوم ! » ، ثم انقلب إلى أصحابه ينادى : « من يبايع على الموت ؟ ! » ، وبايعه ضرار بن الأزور والحارث بن هشام في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم بينهم عمرو بن عكرمة ولده . واندفع هؤلاء أربع المائة الذين بايعوا على الموت على فيلق الروم هجمة رجل واحد ، مستميتين في سبيل ربهم ، وقد تجلى لهم وجهه الأكرم ، وقد أضاء لهم بنوره سبيل الاستشهاد والجنة . وزلزلت الهجمة الروم ، وزادهم زلزالا أن انضم چرچة وجنوده

الذين بايعوا  
عكرمة على الموت

للمسلمين في مهاجمتهم ، مما ثبت في نفوسهم اليقين بغدر بني وطنهم وانضمامهم لأعدائهم .

ورأى خالد فيلق الروم يرتد فأمر الجيش كله بالتقدم ، فإذا الروم يلقونه بهجوم ليس دون هجومه عنفاً . هنالك أيقن المسلمون أن لا مفر لهم من الفناء إلا بالنصر ، فازدادوا بالله إيماناً ، وزاد الإيمان هجومهم قوة ، واندفع ابن الوليد في مقدمتهم يهوى بسيفه على عدوه فيخطف أرواحهم خطفاً . وبلغت الحماسة بالمسلمين حتى شارك النساء الرجال ، فكانت لجويرية ابنة أبي سفيان مواقف تعيد إلى الذاكرة موقف أمها هند في غزوة أحد .

وقاتل الروم مستميتين ، واندفعوا يقتلون من المسلمين كل من وقع في يدهم ، ولذا ترجحت المعركة واستمر ترجحها طيلة النهار . ووقف عكرمة والذين بايعوه على الموت لا يتراجع أحد منهم قيد أنملة بعد أن وهب كل منهم لله نفسه ، وبذلك حملوا وطيس المعركة من بداءتها إلى منتهاها . فلما كانت الشمس في المغرب بدأت قوات الروم تهن ، وبدا الإعياء على وجوه فرسانهم ، ورأى خالد أنهم يلتمسون إلى الهرب الوسيلة . أما الهاوية من ورائهم والمسلمون من أمامهم ، فليس لهم إلى مهرب من سبيل .

وقدر خالد أن فرارهم يزيد أصحابهم ضعفاً ، فأمر رجاله ففسحوا طريقاً يؤدي بهم إلى الوادي . ولم يلبث هؤلاء الفرسان حين رأوا وسيلة النجاة تهيأت لهم أن فروا هاربين وتفرقوا في البلاد . عند ذلك انقضت خالد بفرسانه ومشاته على مشاة الروم فاقتحموا عليهم خندقهم فترجعوا ، وكانت وراءهم هاوية الواقوصة فتردوا فيها وكأنهم جدار دك من أساسه . وشدد المسلمون الضغط عليهم فجعلوا يتراجعون فيتردى في الهاوية منهم فريق بعد فريق . وظلوا كذلك يتلاحقون ، حتى قيل إنه قتل منهم يومئذ مائة ألف ، وقيل مائة وعشرون ألفاً .

الروم يفرّون  
وقوادهم يقتلون

وقُتل يومئذ تذارق أخو هرقل ، كما قتل عدد كبير من أمراء الجيش على الروم . وكان الفيقار وطائفة معه من أشرف الروم قد نجوا من الموت .

فلما رأوا ما حل بأصحابهم تجلّلوا برانسهم ونكسوا رءوسهم وجلسوا حيث كانوا فقتلوا ، وكان الموت منجاتهم من العار . أما باهان ففر ونجا ليقف أمام المسلمين من بعدُ في مواقع لا يكون حظه فيها خيراً من حظه في في اليرموك .

تمت هزيمة الروم ، فدخل المسلمون عسكرهم ، واستقر خالد في رواق تذارق ، وغنم المسلمون كل ما في عسكر الروم ، فكان نفلُ الفارس منه ألفاً وخمسة دراهم . ومن الرواق الذي أقام به شقيق قيصر خلال ثلاثة الأشهر التي انقضت مذ وقف المسلمون والروم وجها لوجه ، مدّ خالد بصره إلى الميدان الذي فر منه الروم فأصبح خلاء ليس لهم فيه نبأة ولا هسيس ، ثم رفعه إلى السماء شكراً لله على نعمائه .

خالد في رواق  
تذارق

ولم يكن عدد القتلى من المسلمين في وقعة اليرموك قليلا ، إذ بلغ ثلاثة الآلاف ، من بينهم عدد من كبار الصحابة والفرسان ذوى المكاثة والبلاء . وكان عكرمة ابن أبي جهل وابنه عمرو قد أصابتهما الجراح من كل جانب أثناء المعركة . فلما أصبح القوم جيء بهما إلى خالد برواق تذارق ، فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمرو بن عكرمة على ساقه وجعل يمسح عن وجهيهما ويقطر في حلقيهما الماء حتى استشهدا . وأصيبت عين أبي سفيان بسهم أخرجه منها أبو حنّمة .

عكرمة بن أبي  
جهل وابنه بين  
قتل المسلمين  
باليرموك

قضت موقعة اليرموك على كل أمل للروم في استبقاء الشام . فلم يكده هرقل يسمع بهزيمة جيشه حتى جلا عن معسكره بجمّص وجعلها بينه وبين المسلمين ، وأقام عليها أميراً كما أقام من قبل على دمشق أميراً . أما المسلمون فالبثوا حين فرغوا من أمر اليرموك أن ساروا إلى أرض الأردن فظهروها من رافضة الروم ، ثم لاحقوهم إلى دمشق وحاصروهم بها .

جلا هرقل عن  
حمص

وحصار دمشق وتعلّب المسلمين عليها وما تلا ذلك إلى أن تم فتح الشام قد حدث في خلافة عمر ، على رواية الطبري ومن إليه .

لم تقف من قصصنا أنباء اليرموك عند نبأ تواترت روايته واختلف مع

ذلك فيه . ذلك النبأ أن محمّية بن زنيّم قدم بريداً من المدينة بعد ما بدأت  
الموقعة، فأخذته الفرسان وسألوه ما وراءه ، فأخبرهم بأن الأمداد في طريقها إليهم ؛  
فجاءوا به إلى خالد فأسرّ إليه أن أبا بكر قبض ، ودفع إليه كتاباً أخذته  
خالد فجعله في كِنانته مخافة أن ينتشر الخبر في الجند . وكان هذا الكتاب  
يحوى استخلاف عمر بن الخطاب وأمرأ بعزل خالد عن إمارة الجيش ، وبتأميمه  
أبا عبيدة بن الجراح . فلما أتم خالد واجبه وظفر بالروم تنحى عن القيادة  
وتولاها أبو عبيدة مكانه .

وفاة أبي بكر  
واستخلاف عمر

عمر يعزل خالداً  
عن إمارة الجيش

هذا نبأ تختلف الروايات فيه مع تواتره . وليس يقع الخلاف على عزل  
خالد ، فهذا أمر مسلم به ؛ وإنما يقع على تصويره في هذه الصورة التي روينا .  
فالأكثرون يؤيدونها ، وبعضهم يذكر أن الأمر بعزل خالد لم يسلم إليه ، وإنما  
أخذته أبو عبيدة فأخفاه حتى تمتّ المعركة ؛ ولم يطالع به خالداً حتى حاصروا  
دمشق . ويذهب غير هؤلاء إلى أن أبا عبيدة أمسك عن ذكره حتى فتحت  
دمشق ، فلما تمّ فتحها أظهر إمارته وعزل خالد .

وعزل ابن الخطاب خالداً عن إمارة الجند بالشام على النحو الذي رواه  
الطبرى ومن إليه يثير الدهشة ؛ فلم يكن خالد أميراً على جيش بالشام غير جيشه  
الذي جاء معه من العراق . ولم يكن أبو عبيدة في هذه الرواية أميراً إلا على  
جيشه ، شأنه في ذلك شأن عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشُرْحبيل  
ابن حسنة . وإنما قام خالد على إمارة الجيش عامة يوم اليرموك بالاتفاق بينه  
وبين سائر القواد . ولو أن النصر لم يتم له في اليوم الأول لكانت القيادة لغيره  
في اليوم الثاني ، ولغيرهما في اليوم الذي يليه . والدهشة لعزل ابن الخطاب خالداً  
تدعونا أن نتلمّس في غير رواية الطبرى وأصحابه ما يزيلها .

الرواية الثانية  
في فتح الشام

وسرى أن الأزدي والواقدي والبلاذري يخالفون الطبرى كذلك في الترتيب  
التاريخي لوقائع الفتح في الشام ، ويختلفون على هذا الترتيب فيما بينهم . فقد  
قيل إن أجنادين ودمشق وغيرهما كانت قبل اليرموك ، وقيل إن اليرموك كانت  
آخر الوقائع . وسنقص هذه الروايات في إيجاز لا ينجي عليها ويصور ما تنطوى  
عليه وما تتفق أو تختلف مع الطبرى فيه .

هذه الروايات تذهب إلى أن الله عزم لأبي بكر فتح الشام بعد أن تمت حروب الردة ولم يكن على تخومه من المسلمين أحد . ثم إنه أصبح يوماً ودعا إليه أهل الرأى بالمدينة وأفضى إليهم بما استقرّ عليه رأيه . فلما اطمأنوا إليه على ما ذكرنا في الفصل السابق ، بعث إلى أهل اليمن وإلى غيرهم من المسلمين يستنفرهم لغزو الروم بالشام . وفي انتظار مجيئهم جعل يُعِدّ جيوشه من أهل المدينة ومكة والطائف وما جاورها . وقد عيّن من هؤلاء أربعة ألوية جعل عليها يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة . وفي رواية أنه عيّن لكل أمير من هؤلاء مِنطَقة من فلسطين أو الشام ، ثم تكون القيادة العامة على الجيوش لمن يقع القتال في مِنطَقتَه . وفي رواية أخرى أنه جعل أبا عبيدة أميراً على هذه الجيوش جميعاً ، وجعل يزيد بن أبي سفيان خلفه في الإمارة<sup>(١)</sup> . وتمّ تجهيز هذه الجيوش للسير حين أقبل ذو الكلاع الحميري وسائر أمراء اليمن على قبائلهم من مدححج وطيّ وأسد وغيرهم . هنالك ودّع أبو بكر يزيد بن أبي سفيان وجيشه إلى الشام وأردفه بزّمة بن الأسود وأوصاه بما سبق أن ذكرناه .

وضاقت المدينة بالقادمين من أرجاء شبه الجزيرة ، فخرج أبو بكر إلى ضيقة المدينة بجيوش المسلمين إلى الشام

ثنية الرداع فوجه الجيوش منها إلى الشام . وقد انضم خالد بن سعيد بن العاص إلى جيش أبي عبيدة الجراح مفضلاً لإيأاه على ابن عمه يزيد بن أبي سفيان ؛ لأنه أسبق في الإسلام ، ولأنه أمين الأمة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وخرجت جيوش اليمن ومعها نساؤها وأبنائها تسير مع المهاجرين والأنصار فيمتلئ بهم فضاء الصحراء . وجاء إلى المدينة بعد مسيرهم جند من اليمن ومن سائر العرب بعثهم الخليفة في أثر من تقدّموهم لينضموا إلى أي الأُمراء شاءوا .

وكان هيرقل بفلسطين حين بلغت أنباء المسامحين ومسيرتهم لغزو

(١) وفي رواية البلاذري أن أبا عبيدة استنقأ أبا بكر حين أراد أن يمقد له على لواء إلى الشام ، وأن عمر بن الخطاب هو الذي ولاه على الشام كله حين استخلف .

بلاده عند ذلك جمع رهوس المذنب وحرّضهم على قتال هؤلاء « الحفّاة العرّاة الجياع » الذين خرجوا إلى بلادهم ، وقال لهم : « وأنا شاخص عنكم وممدكم بالخيل والرجال . وقد أمرت عليكم أمراء فاسمعوا لهم وأطيعوا » . ثم إنه خرج من فلسطين إلى دمشق فإلى حمص فإلى أنطاكية ، وجعل يحرّض الناس ويقول لهم مثل ما قال لأهل فلسطين ، وأقام بأنطاكية يتخذ لمواجهة المسلمين عدته .

وبلغ أبو عبيدة أرض الشام ماراً بوادي القرى وبالبحر . فلما دخل مآب قاومه جند من الروم لم يلبث أن شتّتهم . ولما بلغ أبو عبيدة الجابية جاءته أنباء هرقل تصف تجهز الروم للقاء المسلمين بجيش لم يسمع بمثله عدداً وعدة . عند ذلك كتب إلى أبي بكر يستشيريه ويستمدّه . وكتب يزيد بن أبي سفيان كذلك يذكر أن انسحاب هرقل إلى أنطاكية آية خوفه وانزعاجه . ورضى أبو بكر عن كتاب يزيد وأجابه يشجعه . أما جوابه إلى أبي عبيدة فلم يخل من بعض اللوم . وفي الكتابين ذكر أبو بكر أنه مدّد المسلمين بأضعاف ما مدّد هرقل به أمراء جنده .

هل مكة وفتح  
الشام

وكتب الخليفة إلى أهل مكة يشاورهم ، فغضب عمر ورأى في استشارتهم تسوية لهم بالسابقين الأولين من المسلمين . وعتب أهل مكة على ابن الخطاب ، وكان مما قاله عكرمة بن أبي جهل : « أما إنكم إن كنتم تجدون قبل اليوم في عداوتنا عقالا فلستم اليوم بأشدّ على من ترك هذا الدين وعادى المسلمين منا » .

كانت العرب في هذه الأثناء تنسل من كل صوب وحّدب إلى المدينة تريد أن يكون لها في غزو الشام نصيب . وجمعهم أبو بكر ، وجعل عمرو ابن العاص عليهم وعلى من جاء من أهل مكة . وسأل عمرو : « ألسنت أنا الوالي على الناس ؟ » وأجابه الخليفة : « أنت الوالي على من معك من ها هنا . فإن جمعتمكم حرب فأميركم أبو عبيدة بن الجراح » . ولما آن لعمرو أن يسير توجه إلى عمر بن الخطاب فسأله أن يكلم أبا بكر ليجعله أميراً على المسلمين بالشام قال عمر : « لا أكذبك ، ما كنت لأكلمه في ذلك أبداً وأبو عبيدة

أفضل منزلة عندنا منك» . وألح ابن العاص يقول : « إنه لا ينقص أبا عبيدة شيئاً من فضله أن أليّ عليه » . ولم يغير هذا الكلام من رأى ابن الخطاب ، بل أجابه : « ويحك يا عمرو ! إنك لتحب الإمارة . والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا . فاتق الله يا عمرو ولا تطلب بشيء من سعيك إلا وجه الله . فاخرج إلى هذا الجيش ؛ فإنك إن لم تكن أميراً هذه المرة فأسرع ما تكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد» . ورضى عمرو وسار بجيشه إلى الشام بعد أن ودّعه أبو بكر ونصح إليه .

وكتب أبو بكر إلى أبي عبيدة يستحثه على الغزو . لكن تقدّم المسلمين بالشام كان بطيئاً لم يغير من بطئه وصول الأمداد ثم وصول عمرو بن العاص إليهم . بل لقد ظل أبو عبيدة يكتب إلى الخليفة يذكر له : « إن الروم وأهل البلد ومن كان على دينهم من العرب قد اجتمعوا على حرب المسلمين » ويطلب إليه رأيه . عند ذلك ضاق أبو بكر ذرعاً ، فرأى أن يُنسى الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ، فكتب إليه بالعراق يقول : « إذا جاءك كتابي هذا فدع العراق وخلف فيه أهله الذين قدِمْت عليهم وهم فيه ، وامض متخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدِموا العراق معك من اليمامة وصحبوك من الطريق وقدِموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة ابن الجراح ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك » .

أبو بكر يبعث  
خالداً إلى العراق  
وكتابه إليه في  
ذلك

غضب خالد حين بلغه الخبر فقال قبل أن يقرأ كتاب الخليفة : « هذا عمل عمر . نفس على أن يفتح الله العراق على يدي » . فلما قرأ كتاب الخليفة ورآه قد ولاّه على أبي عبيدة وعلى الشام كله اطمأن وقال : « أمّا إذ ولّاني فإن في الشام خلفاً من العراق » .

يذهب المؤرخون الذين يروون الحوادث على هذا النحو إلى أن خالد كان بالحيرة ولم يكن قد فتح الأنبار ولا عين التمر حين جاءه كتاب أبي بكر . فلما تجهز للخروج إلى الشام سار إليهما ففتحهما وانحدر منهما إلى قواقر ،

ومن هناك اجتاز المفازة ودليله رافع بن عَمِيرَةَ الطائِي حتى بلغ سُوى من أرض الشام .

وفي هذه الأثناء كان أبو بكر قد كتب إلى أبي عبيدة يقول له : « أما بعد ، فإنني قد وليت خالد بن الوليد قتال الروم في الشام فلا تخالفه ، واسمع له وأطع أمره ، فإنني وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » . وكتب خالد إلى أبي عبيدة يقول له : « أما بعد ، فإنني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الحرف ، والعصمة في دار الدنيا . فقد أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالمسير إلى الشام وبالمقام على جندها والتولي لأمرها . والله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه . وأنت - رحمك الله - على حالك التي كنت بها لا يُعصى أمرك ، ولا يُخالف رأيك ، ولا يُقطع أمر دونك ؛ فإنك سيد من سادات المسلمين لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك . تمم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار . والسلام عليك ورحمة الله » .

كتاب خالد إلى  
أبي عبيدة  
ابن الجراح

وسار خالد من سُوى إلى اللّوى ، ثم إلى قُصم حيث صالح بني مَشْجَعَةَ ، ومن هناك انحدر إلى العُويْر وذات الصنمين حتى بلغ غُوطة دمشق بعد أن بث الفرع والرعب حيث سار ، وبعد أن دانت له تدمر وصالحه<sup>(١)</sup> أهلها .

ومن الغوطة سار خالد إلى ثنية العقاب يريد دمشق . وإنما سميت هذه الثنية « ثنية العقاب » بعد غارة خالد لأنه نشر بها العقاب راية رسول الله . وعلى ميل من الباب الشرقي لدمشق نزل ديراً عُرف بعده باسم دير خالد . ويروى أن أبا عبيدة أدركه هناك ، وأن أول حصار لدمشق بدأ يومئذ .

والراجح في الروايات جميعاً أن خالد لم يقم أمام دمشق ، بل تخطاها إلى قناة بُصرى حيث اجتمعت قوات المسلمين . وأما الروايتين صحّت فقد نُسِي إلى المسلمين أن هرقل جمع جيشاً عظيماً بأجنادين ليهاجمهم ، فساروا لقتاله من

( ١ ) وروى البلاذري أنه سار من تدمر إلى حواريين فمرج راهط ومنها إلى غوطة دمشق .

بُصرى، أو أنهم فكوا حصار دمشق وساروا لقتاله منها<sup>(١)</sup>. والتقى الروم والمسلمون بأجنادين قبل أربعة وعشرين يوماً من وفاة الصديق .

اجتماع المسلمين  
جميعاً بأجنادين  
وأجنادين اجتمع المسلمون جميعاً لإجابة لكتاب وجهه خالد إلى  
أمراء الجند : يزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة . وعمرو بن العاص .  
وعباً خالد هذه الجنود فجعل أبا عبيدة على المشاة ، ومعاذ بن جبل على  
الميمنة ، وسعيد بن عامر بن حَزِيم الجُمُحَى على الميسرة، وسعيد بن زيد بن  
عمرو على الفرسان ، وطلق هو يَحْرُضُ الناس متقللاً بين الصفوف لا يستقر  
في مكان .

ويادر الروم المسلمين بالقتال . وكان خالد قد أمر رجاله أن يؤخروه إلى  
صلاة الظهر . ورأى سعيد بن زيد كثرة القتلى من المسلمين فنادى يستعجل  
المعركة . هنالك تقدم خالد الفرسان وأمرهم أن يحملوا معه ، ثم حمل الناس  
بأجمعهم ، فانهزم الروم وأنصارهم وقتلهم المسلمون كيف شاءوا وأصابوا  
عسكرهم وما فيه .

وارتدَّ خالد بالمسلمين فحاصروا دمشق ، فنزل هو دير خالد مما يلي الباب  
الشرقي ، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ، ونزل عمرو بن العاص على باب  
تُوماء ، ونزل شرحبيل على باب الفراديس ، ونزل يزيد على الباب الصغير الذي  
يعرف بكيسان . وأحاط المسلمون بالمدينة وضيقوا عليها الحصار ، ولا يخامرهم  
الريب في أنها ستفتح لهم أبوابها وتسلمهم مفاتها .

وكتب أهل دمشق إلى هرقل يستنصرونه ويدكرون له تضيق المسلمين  
عليهم وشدتهم في محاصرتهم ، فأرسل هرقل إليهم جيشاً لقيه خالد والمسلمون

(١) وفي رواية الأزدى أن خالداً مر بدمشق ولم يقف عندها إلا ريثما شن هو وأبو عبيدة  
الغارات على الغوطة وغير الغوطة . فبينما هما كذلك إذ أتاهما النبا أن صاحب حمص أقبل في جمع  
عظيم من الروم يريد أن يقطع شرحبيل بن حسنة ببصرى . ثم علم خالد وأبو عبيدة أن جموعاً عظيمة  
من الروم قد نزلت أجنادين وأن أهل البلد وجموعاً من العرب أسرعت إليهم ، فخرجوا عن دمشق يقصدان  
مواجهة هذا الجمع من الروم ، وكان أبو عبيدة على الساقة . وإنه ليسر إذ أدركه أهل دمشق يريدون  
قتاله ، فارتد خالد إليهم وقتلهم ففروا راجعين يتحصنون بالمدينة ثم سار خالد وأبو عبيدة ومن معهما من  
مسلمين إلى أجنادين .

بمخرج الصُّقْرَ فهزموه فارتد مدبراً ، وعادوا إلى حصار دمشق .

حصار دمشق  
والدفاع عنها

ودافع أهل دمشق عن مدينتهم ما استطاعوا . تحصنوا بأسوارها ، ورموا المسلمين بالنبل من أعلاها : وبالغوا في تحصين أبوابها ؛ لكن ذلك كله لم يصد المسلمين عن الشدة في الحصار . وعاد أمراء دمشق فكتبوا إلى هرقل يذكره أنه إن لم يُنجدهم فلا سبيل لهم إلا مصالحة عدوه وعدوهم . وكتب هرقل إليهم يحرّضهم ويشجّعهم ويذكر لهم أنه مرسل المدد وراء رسوله إليهم . لكن المدد طال غيابه عنهم ، فلم يكن لهم بدٌّ من التسليم .

صلح أهل دمشق  
مع المسلمين

وصالح أهل دمشق المسلمين . تجرى بعض الروايات بأن أبا عبيدة صالح أهل دمشق القرينين من باب الجابية ، فلما دخل المدينة بعد توقيع الصلح كان خالد قد فتح الباب الشرقي عنوة . والتقى الأميران ، هذا يقول إنه صالح أهل المدينة ، وهذا يقول إنه فتحها بقوة الجند ، ثم أجاز الصلح . وتجري بعض الروايات بأن خالداً هو الذي صالح أهل دمشق القرينين من الباب الشرقي ، وأن أبا عبيدة دخل من باب الجابية عنوة . والمتفق عليه أن الأمر انتهى بالصلح بين القرينين .

والروايات تجرى كذلك بأن أبا بكر قُبِض وتولى عمر بن الخطاب أمر المسلمين وجيوشهم لا تزال على حصار دمشق ، وأن ابن الخطاب بعث إلى أبي عبيدة بوفاة أبي بكر وبولايته وبغزل خالد بن الوليد ، فلم يُفَضَّ أبو عبيدة إلى خالد بعزله حتى فتحت دمشق أبوابها . وقيل بل أفضى إليه بأمر العزل فلم يغير ذلك من نشاط خالد ، وأن خالداً صالح أهل دمشق حين دخل أبو عبيدة من باب الجابية عنوة ، فلما قيل لأبي عبيدة : والله ما خالد بأمر فكيف يجوز صلحه ، قال إنه يُجيز على المسلمين أذناهم ، وأجاز صلحه .

هذه رواية الأزديّ والبلاذريّ والواقدي عن فتح الشام أوجزنا تفاصيلها ولم نُطل الوقوف عند اختلاف الروايات فيها . وهي تختلف كما رأيت عن رواية الطبري في الترتيب التاريخي للوقائع ، وتختلف كذلك معه في أمر خالد بن الوليد وإمارته على الجند وعزله عن هذه الإمارة .

على أن أمرين أساسيين لا يقع عليهما خلاف : أولهما أن أبا بكر هو الذي

أبو بكر وابن الوليد ومكانهما في فتح العراق والشام

قرر غزو الشام كما قرر غزو العراق ، وهو الذي جيّش الجيوش وسيّر الأمداد إليهما ، وأن ما تم للمسلمين من نصر على الروم وعلى الفرس في عهده كان أساس الإمبراطورية الإسلامية . والثاني أن سيف الله خالد بن الوليد كان القائد المظفر في فتح الشام ، كما كان القائد المظفر في فتح العراق ، وأن عزل عمر لإياه عن إمارة الجند لم يغيض من مكانته ولا من عبقريته في الحرب ، هذه العبقرية التي عرفها رسول الله فيه فسمّاه سيف الله ، وأقرها له أبو بكر فقال : « ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين » .

تعذر التحقيق التاريخي لوقائع الفتح في الشام

أما اختلاف المؤرخين في ترتيب الوقائع فليس يسيراً تحقيقه . لقد رأيت من رواية الطبرى ومن إليه أن خالد بن سعيد ما لبث حين أمره أبو بكر بالتقدم في الشام أن اجتاز حدوده فانسحب الروم وأنصارهم من العرب أمامه دون قتال ، وأن باهان قائد الروم جعل يتراجع بجيوشه نحو دمشق فيتبعه خالد حتى كانا على مقربة من مرج الصفر ؛ هنالك ارتد باهان فأحاط به وقطع عليه خط رجعتة وقتل فرقة من عسكره فيها ابنه سعيد بن خالد بن سعيد . عند ذلك فر خالد في كتيبة من أصحابه حتى بلغ ذا المروة على مقربة من المدينة . أما سائر قوات المسلمين فتقهقر بها عكرمة بن أبي جهل إلى حدود الشام ، وهناك أقام حتى أمده أبو بكر بالأمراء والجيوش الذين تقدموا إلى اليرموك دون أن يلقوا الروم . وعسكر الروم على ضفة اليرموك الأخرى . ولم يقع بين القوتين قتال طيلة شهرين سُمّ الخليفة جمود الموقف أثناءهما فأمد المسلمين بخالد بن الوليد . وأقام خالد مع القوم حتى هزم جيوش هرقل هزيمة نكراء . ويوم تم لخالد هذا النصر قدم محمية بن زيسم بريداً من المدينة يحمل التبأ بأن أبا بكر قبض وأن عمر استخلف وأنه عزل خالد عن إمارة الجيش .

هذه رواية الطبرى ومن إليه . أما البلاذرى ومن شاكلة فيذكرون أن اليرموك حدثت في عهد عمر ، وهي في رأى بعضهم آخر الوقائع في فتح الشام ، كما يذكرون أن أبا بكر جعل أبا عبيدة أميراً على المسلمين لفتح الشام ، وأنه أمده بجيوش كان خالد بن سعيد في بعضها . وقد فتح أبو عبيدة الجابية ثم أبطأ في تقدمه وألح على الخليفة بالكتب يستمده ويذكر له من بأس الروم وقوتهم

ما جعل أبا بكر يوفد خالد بن الوليد من العراق أميراً على جيوش المسلمين بالشام ، ويعزل أبا عبيدة عن هذه الإمارة . وسار ابن الوليد حتى انضم إلى قوات المسلمين على قناة بصرى ، ومن هناك التقى المسلمون بقوات الروم العظيمة التي اجتمعت بأجنادين فغلبوها . ثم إنهم حاصروا دمشق وطال حصارهم إياها قبل أن تفتح أبوابها . ويوم فتحت هذه الأبواب جاء بريد المدينة بوفاة أبي بكر واستخلاف عمر وعزل خالد .

تعاذل روايتي  
الطبرى  
والبلاذرى فى  
وقائع الفتح

أكانت اليرموك فى عهد أبى بكر كرواية الطبرى ومن إليه ، أم فى عهد عمر كرواية البلاذرى ومن شاكله ؟ ! ربما أيتد رأى الطبرى أن واقوصه الواقعة على اليرموك والتى حدثت المعركة عندها ، قريبة من بادية الشام ، ومن تخوم العرب ، ومن طريق وادى سرحان ، وأنها كانت لذلك أدنى الأرض إلى جيوش المسلمين حين التقائها بعد أن جاءت من المدينة تغزو هرقل وإمبراطوريته . وربما أيد رواية البلاذرى ومن شاكله ما ذكره الطبرى نفسه من أن الروم تراجعوا منذ بدأت الحرب نحو دمشق ، مطمئنين إلى حصونها وإلى قوة المدن الحصينة المحيطة بها ، وأنهم أرادوا بتراجعهم أن يستلجوا العرب إلى المواقع القوية ليوقعوا بهم ويردوهم منهزمين إلى بلادهم فلا تحدثهم أنفسهم بالعود إلى غزو الشام مرة أخرى .

الرأى فى عزل  
ابن الخطاب  
خالداً

من العسير ، والأمر ما ترى ، أن نقطع كيف كان ترتيب الوقائع فى فتح الشام . أما عزل ابن الخطاب خالداً عن إمارة الجيش فالأمر فيه يسير . فالطبرى والبلاذرى والمؤرخون جميعاً متفقون على أن أبا بكر بعث خالداً من العراق إلى الشام لينسى الروم وساوس الشيطان ، وذلك بعد أن سُم جمود قوات المسلمين هناك . وإنما يقع الخلاف على مكان خالد من زملائه الأمراء : أذهب أميراً عليهم جميعاً ، أم ذهب أميراً على القوة التى فصل بها من العراق دون سواها ؟ فإذا انحسم هذا الخلاف تيسر لنا أن نفهم أمر ابن الخطاب بعزل خالد .

يذهب الطبرى ومن إليه إلى أن ابن الوليد ذهب إلى الشام أميراً على القوة التى فصل بها من العراق ، وأنه لم يتول الإمارة العامة إلا يوم اليرموك ،

وذلك حين اتفق مع زملائه أن يتعاوروا الإمارة بينهم ، وأن يتأمر هو اليوم الأول . أما البلاذرى ومن شاكله فيذكرون أن أبا بكر بعثه أميراً على قوات المسلمين كلها بالشام ، ويثبتون نص الكتابين اللذين بعث بهما الخليفة إلى خالد وإلى أبي عبيدة متضمنين أمره هذا . ولنا نتردد في الأخذ برواية البلاذرى . فليس طبيعياً أن تقف جيوش دولة بعضها إلى جانب بعض ولا تسند القيادة العامة على القوات كلها إلى أحد أمراء هذه الجيوش . والطبرى نفسه يثبت أن أبا بكر بعث إلى أمراء الجند بالشام أن يجتمعوا عسكرياً واحداً وأن يلقوا زحف المشركين بزحفهم . وهذا أمر لا سبيل إلى نفاذه إذا تفرقت القيادة . وقد أصدر الخليفة هذا الأمر قبل أن يبعث ابن الوليد إلى الشام . فلا بد أن إمارة الجيش العامة كانت لأبي عبيدة أو ليزيد بن أبي سفيان أو لغيرهما من سائر الأمراء . والزاجح أنها كانت لأبي عبيدة وإن ذكر بعضهم أنه استعفى أبا بكر منها . أما وذلك ما لا نتردد في القطع به ، فلا شبهة في أن أبا بكر أوفد خالداً من العراق إلى الشام أميراً على جيوش المسلمين كلها ، على نحو ما رواه البلاذرى ومن شاكله .

ولولا أن خالداً كان الأمير على جيوش المسلمين لما عزله عمر بن الخطاب عن هذه الإمارة أول ما استخلف . فالثابت في كتاب الطبرى وغيره من المؤرخين أن خالداً ظل بعد عزله هذا أميراً على القوات التي كان يباشر قيادتها ، وأنه ظل كذلك حتى عزله عمر عن إمارة قنيسرين وعن عمله في الجيش ، وذلك في السنة السابعة عشرة من الهجرة ، وهي السنة الخامسة من خلافة عمر . فالعزل الأول كان إذن عن القيادة العامة ، أما العزل الذى حدث بعد ذلك بما يزيد على أربع سنوات فكان عن عمله كله .

هذا ما نقطع به ، وما لا شبهة عندنا فيه . وهو وحده الذى يفسر تصرف عمر أول ما استخلف . فلو أن خالداً كان أميراً على القوات التي فصل بها من العراق دون سواها لما احتاج عزله إلى أمر من الخليفة ، ولأسترد أبو عبيدة إمارته على جيوش المسلمين بعد يوم اليرموك في رواية الطبرى ، أو بعد دمشق في رواية البلاذرى .

وهذا اليوم الذى عزل ابن الخطاب فيه خالداً عن إمارة الجيش العامة مؤقف خالد بعد عزله من إمارة الجيش  
 لآثر معركة من أكبر المعارك فى فتح الشام هو فى حياة خالد من أجدد أيامه .  
 وليس يقف مجده فى ذلك اليوم عند انتصاره على عدوه ، فقد كان هذا النصر  
 واحداً من عشرات . إنما أكبر مجده يومذاك أنه انتصر على نفسه ، فلم يضعف  
 عزل الخليفة إياه من حماسته لله ولدين الله ، ولم ينهه من قوة بأسه وعظيم  
 شعوره بواجبه ؛ فقد رضى إمارة أبى عبدة وسلم بها طائِعاً ، وسار على رأس  
 لوائه يخوض غمار المعارك واحدة بعد أخرى فإذا هو هو ، وإذا النصر يسير فى  
 ركابه ، وإذا المسلمون والروم يتحدثون بفعاله ، وكأنه القائد الأول ، وكأنه  
 النصر تجسم رجلاً ، وكيف لا يكونه وهو سيف الله فلا غالب له ! .

قصة چرچہ  
 وإسلامه  
 لا جناح علينا ونحن نختم الآن حديث خالد فى عهد أبى بكر أن نقص  
 رواية أثبتها الطبرى وأثبتها ابن الأثير . وإنما نقصها على علاتها لا نحبل  
 تبعتها ولا نطلب إلى القارىء تصديقها . فقد ذكر أن چرچة القائد الرومى خرج  
 صبح يوم اليرموك حتى كان بين الجيشين ونادى : ليخرج إلى خالد . فخرج  
 خالد حتى اختلفت أعناق دابتيهما وقد أمن كل منهما صاحبه . عند ذلك قال  
 چرچة : يا خالد اصدقنى ، ولا تكذبى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى  
 فإن الكريم لا يخادع . هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا  
 تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ وأجابه خالد بالنفى . فقال : فمى سميت سيف الله ؟  
 وأجابه خالد فحدثه عن بعث الله رسوله ، وأن الله هداه للإيمان به والذود عن  
 دينه ، ولذلك قال رسول الله له : « أنت سيف من سيوف الله سله الله على  
 المشركين » . ودعا له بالنصر ، فسمى « سيف الله » بذلك . ثم دار بين الرجلين  
 حوار حول رسالة محمد انتهى بإسلام چرچة وصلاته ركعتين وإلى قتاله فى صف  
 خالد ومقتله مع المسلمين الذين قتلوا فى الموقعة .

قصص هذه الرواية على علاتها لأنها تصور ما لخالد وعبقريته فى النفوس  
 من أثر جعل الطبرى وابن الأثير وغيرهما من المؤرخين لا يرون بأساً فى تصديق  
 كل ما يتصل بهذا القائد النابغة البطل صاحب المعجزات فى الحرب . وهو  
 فى الحق جدير أن يبلغ إعجابنا به غاية ما نعجب ببطل من أبطال العالم فى

تاريخ العالم كله ، وإن لم يسوغ لنا الإعجاب أن نقبل إلا ما يثبت أمام النقد.  
وما يقره المنطق السليم .

والآن ، وداعاً لخالد ! وداعاً فأنح العراق وسورية ، وموطد القواعد من  
الإمبراطورية الإسلامية ! وداعاً سيف الله البتار ! ولعل الأقدار تجتمعنا يوماً  
في عهد الفاروق عمر ! .

وداعاً موطد  
القواعد من  
الإمبراطورية  
الإسلامية